

مصر وقت الفتح الفاطمي

والعوامل التي مهّرت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر وقت الفتح الفاطمي ، فريسة هينة للفأح ؛ بيد أنها لم تكن كذلك قبل الفتح الفاطمي بنصف قرن فقط . وقد ثابت للفاطميين مذشادوا ملكهم في إفريقية ، نية في غزوها وامتلاكها ، فغزوها أكثر من مرة ، واستولوا على بعض نواحيها ، ولكنهم ارتدوا عندئذ أمام جند الخلافة وجند مصر ؛ ذلك أن مصر لم تكن يومئذ فريسة هينة ، وكان يشرف على مصايرها باسم الخلافة جماعة من الجند والزعماء الأقوياء ينظمون مواردها وقواها الدفاعية حين الخطر العام ؛ وكان الفاطميون من جهة أخرى يبالغون في المغرب خطر الانتقاص المستمر ، ويقوم ملكهم الفتى على بركان يضطرم بناصر الخروج والثورة ، حتى لقد كادت دولتهم الناشئة تنهار في المهدي تحت ضربات القبائل البربرية الخبيثة وذلك في عهد ثاني خلفائهم القائم بأمر الله (١) . على أن الخلافة العباسية التي استطاعت في فورة من القوة في عهد المكتفي بالله أن تسحق الدولة الطولونية وأن تسترد مصر منها ، لم تستطع أن توطد سلطانها الفعلي في مصر ، وإن كانت قد استعادت سلطانها السياسي والديني فيها ، وكان الزعماء الأقوياء الذين يحكمونها باسم الخلافة مثل تكين الخزري ، وذكا الرومي ، وابن كيلنج ، وابن طنج ، يتمتعون بكثير من الاستقلال ، وربما تزح بعضهم إلى انتراعها من يد الخلافة كما فعل أحمد بن طولون من قبل ، وكما فعل محمد بن طنج (الأخشيدي) فيما بعد ، وكانت هذه النزعة الاستقلالية ، ذاتها عاملا في ضعف سلطان الخلافة في مصر ، وفي المباعدة بينها وبين مصر ، وقلة اهتمامها بشؤون هذا القطر الثاني ومصايرها ؛ ولكنها كانت من جهة أخرى عاملا في حرص أولئك الحكام والزعماء الطامحين على الدفاع عن مصر وحمايتها من غارات المعتدين عليها والتطلع إلى امتلاكها . وكان

(١) راجع القرزبي - تصانيفه - بأخبار الأئمة الخلفاء ص ٤٧ -

٤٩ - والحفظ (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٦٣

جل اعتمادهم في ذلك على جند مصر ذاته ، ولكن الشعب المصري لم يكن يعطف دائما على أولئك الحكام الأجانب خصوصا ومعظمهم من الفرس أو الترك المستعربين ؛ فكان الزعماء المحليون يترعون دائما إلى منافستهم ومناواتهم ، وكان الجند كثير التمرد والثورة ، يتبرم بطواع أولئك الزعماء وجمعهم في استخلاص أرزاقه (١) ؛ فكان تناقب الولاة ومنافستهم في تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة ، واضطراب الشؤون العامة ، و فقدان الأمن ، وغلبة الفوضى ؛ هذه كلها تزيد مصر ضعفا على ضعفها ، وتدفعها إلى التطلع إلى مصير أفضل من هذا المصير

وبينا كانت الدولة العباسية تجوز مرحلة اضطراب وضعف ، كانت دولة خصيمة فتية هي الدولة الفاطمية تسير مسرعة إلى النماء والتوطد ؛ وكانت القبائل البربرية التي شددت أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالب ، تحتفظ في هذا القفر بمخشونتها وبأسها بميدة عن تلك العوامل الرخوة التي تحمل عناصر الهرم والقناء إلى دول ومجتمعات يفرها تيار الحضرة والنماء والترقى ؛ ولم تكن الحركة الهائلة التي اضطرت مدى حين بين الدولة الفتية وبين القبائل الخبيثة ، وكادت تسحقها في المهدي ، إلا لتدرك فيها رغبة الحياة وعزم النضال ؛ وقد خرجت من الحركة ظافرة قوية ، ولكنها أدركت في نفس الوقت فداحة الخطر الذي يهددها من تمرد أولئك الخوارج الأشداء ؛ ومع أن الفاطميين استطاعوا فيما بعد أن يدوروا قبائل المغرب كله وأن ينفذوا بقتوحاتهم في المغرب الأقصى حتى المحيط ، فأنهم لم يطمثوا إلى البقاء في تلك الوهاد الوعرة ، ولم يعتبروا أنهم وصلوا بأقامة ملكهم في إفريقية إلى ذروة الأمانى والتنايات

كانت مصر تلوح لهم خلال هذا القفر النائي درة خضراء ؛ وكانت مصر في نظريهم هي ميدان الحركة الحاسمة التي يضطرمون لخوضها مع الدولة العباسية - خصيمتهم السياسية والمذهبية - وقد حاولوا خوضها منذ الساعة الأولى ، فزحفوا على مصر أكثر من مرة كما قدمنا ، وكما سنفصل بعد ؛ ولكن فرصة الظفر لم تكن قد سنحت بعد ، واستطاعت مصر بمجندها وجند الخلافة أن ترد النزاة ، وشغل النزاة مدى حين بما يهددم في

(١) راجع الحفظ - ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧

حفيد للأخشيدي هو احمد بن علي بن الأخشيدي ، وتولى تدير الأمور وزير مصر القوي جعفر بن الفرات ؛ ولكن الامور كانت قد ساءت يومئذ ، فكثرت الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب ، وظهرت امارات الذبول والهرم على الدولة الأخشيديّة ولاح لها شبح الفناء جاءاً في الأفق

— ٢ —

وشغلت الدولة الفاطمية في تلك الفترة بشؤونها الخاصة ، فلم تعاود كرة الهجوم على مصر منذ سنة ٣٣٢ هـ ؛ ومع ذلك فقد لبثت ترقب سير الحوادث في مصر بمنتهى العناية ؛ وكانت تعتمد في تنفيذ مشروعها على الشعب المصري ذاته وعلى زعمائه الناقين على بني الأخشيدي ، وعلى عمرد الجند الداخلة لانتفاص أعطية ؛ وقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين الى غزو مصر وقت أن غادرها ابن كيفلغ منهزماً أمام الاخشيدي لسحق الدولة الأخشيديّة^(١) . ولما توفي كافور ، واضطربت أحوال الدولة ، وتعارضت الآراء في مسألة الولاية والحكم ، وكثر التنافس على السلطة ، وقلت اعطية الجند ، كتب بعض زعمائه الى الخليفة الفاطمي المزل لدين الله يدعوهُ إلى فتح مصر^(٢) ؛ واشترك في هذه الدعوة رجل من أكبر رجال الدولة في عهد كافور ، هو يعقوب بن كاس ؛ وكان الوزير جعفر بن الفرات قد قبض عليه عقب وفاة كافور وزجه إلى السجن وصادر أهواله فما زال يسي حتى أفرج عنه ؛ وفر من مصر إلى المغرب ودعا المزم إلى فتح مصر ، ووصف له خصيها وغناها ، وضمها واضطرب أحوالها^(٣) ؛ وقد كان لابن كاس هذا فيما بعد أعظم شأن في الدولة الفاطمية بمصر في عهد المزم وولده الوزير

وقد رأى الفاطميون في موت كافور خاتمة لذلك الاستقرار الذي تمتت به مصر في عهد بني الأخشيدي ، ولم يفهم أن يلاحظوا عوامل الانحلال والوهن التي سرت سراعاً إلى قوى مصر المادية والمعنوية . والواقع أن مصر كانت تعاني من تقاب الزعماء والدول أسوأ الآثار في مواردها وفي نظامها الاجتماعي وأحوالها المعنوية ، وكانت تلك القوة التي تسببها الزعامة المؤقتة على مركزها خابكاً ، وكان الشعب مطية للتقلب يسوقه إلى الحرب والسلام طبق

افريقية ذاتها من خطر الانتفاص والفناء . وفي تلك الفترة تطورت الحوادث في مصر وسارت الى مرحلة جديدة من الاستقرار في ظل الخلافة أيضاً ؛ وانتهت المنافسات والثورات العسكرية المتكررة بفوز محمد بن طنج الأخشيدي بولاية مصر للمرة الثانية في سنة ٣٣٣ هـ (٩٣٥ م) من قبل الخليفة القاهر ؛ وكان قد وليها لأول مرة قبل ذلك بمامين ولكنه لم يدخلها ولم تطل ولايته أكثر من شهر ؛ فلما وليها من قبل القاهر سار إليها من دمشق في قواته ، فتمرض له أحمد بن كيفلغ حاكم مصر وقتئذ وحاول رده عن ولايتها بقوة السيف ؛ ذلك لأن ابن كيفلغ كان من أولئك الزعماء الأقوياء الذين يطمحون الى الاستقلال بمصر ؛ ولكن ابن طنج هزمه ودخل مصر ظانراً وتقلد ولايتها ، وأنتم عليه الخليفة بلقب الأخشيدي أو (ملك الملوك) وكان الاخشيدي أميراً طموحاً ، وافر الذكاء والشجاعة والمزم ، فلم تقف همته عند استخلاص الولاية لنفسه على الشام ومصر ؛ ولكنه رأى أن ينشئ فيها لنفسه دولة مستقلة في ظل الخلافة ، وأسرة بلوكية توارث السلطان من بعده ، على مثل ما انتهى إليه ابن طولون بإنشاء الدولة الطولونية . وهكذا قامت بمصر دولة جديدة هي الدولة الأخشيديّة ؛ واستقرت الأحوال بمصر في ظل الدولة الجديدة ، وانتظمت قواتها الدفاعية ، واستطاعت أن ترد الغزاة الفاطميين كرة أخرى (سنة ٣٣٢ هـ) وسطمت الدولة الأخشيديّة بمصر مدى حين ، وكادت تنافس في القوة والبهاء دولة بني المباس ذاتها ، ولاح مدى حين أن أمل الفاطميين في فتح مصر قد خبا . ولكن قوة الدولة الجديدة كانت ترجع بالأخص إلى همة منشئها الأخشيدي وإلى قوة خلاله ؛ فلما توفي الأخشيدي (سنة ٣٣٤) ، وخلفه ولده أنوجور على مصر والشام ثم أخوه علي بن الاخشيدي (سنة ٣٤٩) ، وآل تدير الأمور في عهدهما إلى كافور الأخشيدي خادم أبيهما ؛ أخذ صرح الدولة الجديدة في التصدع ؛ ولما توفي علي بن الاخشيدي ، انزع كافور الامارة لنفسه (سنة ٣٥٥) ؛ وقبض هذا الأسود الخمي مدى حين على مصاير مصر والشام ؛ ومع أنه كان كثير الدهاء والمزم ، فانه لم يستطع أن يحول دون نسرب الدوامل للمعنوية والاجتماعية الهدامة التي كانت تقضم أسس الدولة الأخشيديّة ، ولم تطل ولايته مع ذلك أكثر من عامين ؛ وخلفه في الامارة سبي

(١) الخطط — ج ٢ ص ١٢٧

(٢) ابن خلكان في ترجمة القائد جومر — ج ١ ص ١٤٨

(٣) ابن خلكان — ج ٢ ص ٤٤٠

لدى قصر فقط . وقد نشأت الدولة الفاطمية وترعرعت في قفار المغرب ، في مهاد البساطة والخشونة والقوة ؛ وانتهت في هذا الوقت الذي أزمع الخليفة الفاطمي فية فتح مصر ، إلى ذروة القوة والقوة والرجولة إذا صح التعبير . وإليك رواية عن المرز تقدم إلينا صورة قوية مؤثرة عن تلك الروح الخشنة الرومانية التي امتازت بها الدولة الفاطمية في تلك الفترة من حياتها : استدعى المرز في يوم بارد إلى قصره بالمنصورة عدة من شيوخ كتامة ، وأمر بإدخالهم إليه من باب خاص ، فإذا هو في مجلس مربع كبير مفروش باللبود وحوله كساء وعليه حبة وحوله أبواب مفتحة تقضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ؛ فقال يا إخواننا أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ، وأنا الآن بحيث تسمع كلامي : أرى إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب في المشغل والديباج والحريز والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء ، كما يفعل ، أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ؛ وإنى لا أفضلكم في أحوالكم إلا بما لا بد لي منه من دنياكم وبما خصني الله به من إيمانكم ؛ وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أحبيب عنها بخطي ؛ وإنى لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويصبر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم ، فأنزلوا باشيوخ في خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر فيزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم ، ونحننا على من وراءكم ممن لا يصل إلى كتحننى عليكم ليصل في الناس الجليل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل وأقبلوا بمدحنا على نساتكم . والزمو الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنمص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعب نمازكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ؛ ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ؛ أنهضوا رحمكم الله ونصركم (١)

محمد عبد الله عثمان

(لبحث بقية)

(النقل متنوع)

أهوائه ، ويستنفد موارده وأرزاقه في بذخه ومشاربه ، وكانت الماطفة القومية تتبرم بهذه السيادة الأجنبية التي تمثلها تصور لا تصطبغ بصيغة قوية من العروبة أو الزعامة الدينية ، كذلك كانت الأزمات الاقتصادية الخطيرة التي تنتهي غالباً بالغلاء والوباء تفعل فعلها في إذكاء عواطف السخط والاستكائة واليأس ؛ وقد كانت مصر وقت الفتح الفاطمي (سنة ٣٥٨ هـ) تعاني مصائب الغلاء والوباء ، ويقال إنها فقدت من أبنائها في تلك الحقبة زهاء ستمائة ألف (١) وكان ذلك بلا ريب عاملاً في إضعاف قواها الدفاعية وفي زهدها في النضال والمقاومة . أضف إلى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئذ من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعي الشامل ؛ وقد انتهت البنا في ذلك رواية إذا سمحت فأنها تمثل ما كان لتلك الظاهرة يومئذ من أهمية في إذكاء همة الفاطميين لفتح مصر ؛ وخلاصة هذه الرواية أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المرز) أرسلت إلى مصر صبية لبيع فرضها وكيلها في السوق وطلب فيها ألف دينار ، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساوته في ثمنها واشترتها منه بستائة دينار ، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هي ابنة الأخشيد محمد بن طنج وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان ، فلما عاد إلى المغرب حدث المرز لدين الله بأمرها ، فدنا المرز شيوخ القبائل ، وروى الوكيل لهم حادث الصبية ، وعندئذ قال المرز : يا إخواننا أنهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم يخرج بنفسها وتشتري جارية لتستمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم وزهبت الثيرة منهم ، فأنهضوا بنا إليهم (٢)

وفي هذه الأقوال التي ينسب قولها عن مصر للمرز لدين الله صورة بارزة لما يسود المجتمع المترف الزخو من عناصر الهدم . وقد كان هذا شأن المجتمع المصري في خاتمة كل فترة من النهوض والقوة : ففي نهاية الدولة الطولونية انتهى المجتمع المصري ، بمد فترة قصيرة من القوة والبهاء والقوة ، إلى نوع من الانحلال والتفكك مهد لسقوط الدولة الطولونية وعود السيادة العباسية ؛ وقد كان هذا شأنه في خاتمة الدولة الأخشيدية التي سطت في عهد مؤسسها

(١) ابن خلكان - ج ٢ ص ١٣٤

(٢) القرظي - المخطوط ج ٢ ص ١٦٦ - وانماظ المنهاج ص ٦٤

(١) القرظي المخطوط . ج ٢ ص ١٦٤ وانماظ المنهاج ص ٦٠ و٦١